العرب
الأربعاء 2021/03/24
السنة 43 العدد 12009

البحوث الجامعية سنوات من الجهد تنتهي إلى سلة المهملات

البحوث في العلوم الإنسانية في تونس وسيلة لإخفاء الأمراض

في كل سنة أمرّ بالكثير من عناوين البحوث في العلوم الإنسانية وخاصة في حقل الأدب في تونس وأتفاجأ من ثيماتها التي لا تمت بصلة إلى بيئتها ولا أجد فيها ما هو جديد ومثير، عدا التكرار، وكأن جهاز البحث معطل ومشلول، لذا يردد فقط ما يعرف مسبقا، أو ماذا يعني جهل الباحث بقضايا بلاده أو باحثيها وأدبائها، إلخ.

محمد ناصر المولهي
كاتب تونسي

البحث العلمي ليس ترفا إنه رؤية وهوية (لوحة للفنان نزار عثمان)

آلاف من البحوث الجامعية في العلوم الإنسانية تقدم سنويا لنيل رسائل الماجستير أو الدكتوراه، تختزل سنوات من الجهد والسهر والبحث، ولكنها في النهاية تذهب ما أن يتم تقديمها إلى النسيان وإلى غبار الأرفف وفي أحيان كثيرة يكون مصيرها سلة المهملات.

كي لا نتهم بالشخصنة ولا بالتعميم في تناول بعض العناوين أو البحوث التي قد تتوافق مع بحوث موجودة فعلا، نبدأ حديثنا بضرورة تنسيب كل ما سيطرأ فيه، ومن ناحية أخرى نشير إلى أن هذه الظاهرة لا تقتصر على تونس فحسب، بل هي أيضا ظاهرة تطول الكثير من الأقطار العربية الأخرى.

باحثون بلا جدوى

من الضير أن نقول لباحث ما أن بحثه بلا جدوى، وكأننا أفنينا الليالي الطويلة والتعب والسنوات بمجرد كلمة فضفاضة "بلا جدوى". ولكنها حقيقة مؤلمة، الباحث جزء من المشكلة فيها، علاوة على منظومة البحث المعطوبة.

> الجامعات ليست فقط أماكن للتوظيف والبحث العلمي ليس وسيلة للترقي الاجتماعي فقط هذه نظرة مغلوطة ومكررة

بداية يعود الإشكال في أساسه إلى طريقة النظر إلى البحث العلمي، وهنا نخصص المقال للبحث في العلوم الإنسانية مركزين بشكل خاص على البحوث الأدبية. فالتحصيل العلمي في تونس كان وما زال وسيلة للترقي الاجتماعي، والطريق نحو الوظيفة.

لو سألت أيا كان لماذا يدرس ستكون الإجابة: الوظيفة. وهذا ممكن ومعقول، لكن بونا شاسعا بين واقع التوظيف والتعليم، كل منهما في واد. تأثر البحث العلمي بهذا الواقع، فتزايد أعداد الباحثين في مختلف مجالات العلوم الإنسانية، ومرده الأساسي البطالة ومحاولات تحسين المستوى التعليمي للظفر بوظيفة، فيقضي الطالب أو الطالبة سنوات في التحصيل العلمي الإضافي هربا من شبح البطالة. ولكنه يحاصرهم في النهاية.

البحث لغايات اجتماعية ووظيفية ستنتج عنه بحوث متسرعة ووظيفية أيضا بلا رؤى ولا فاعلية، بحوث تحاول الوصول بأيسر الطرق إلى لقب الماجستير أو الدكتوراه الصوري، ومن ثم تحسين شروط التفاوض مع الدولة للتشغيل. بينما البحوث مجرد لَوْك وتكرار غريب وعجيب في أغلبه.

قليلون هم من يواصلون البحث لغايات بحثية، فالأغلبية لا يهمها من البحث إلا الترقّي وبالتالي لا ضير في سلك الطرق السالكة، فنجد جل البحوث تصب في ثيمات ومواضيع مكررة. نجد عناوين مستهلكة من قبيل "الحماسة في شعر المتنبي"، "الإيقاع في شعر محمود درويش"، "الحارة في روايات نجيب محفوظ"، "أدب ضد الاحتلال"، "الأدب والتحليل النفسي"، "قراءة سيميائية تأويلية في أنا يوسف يا أبي للشاعر محمود درويش"، وغيره من القضايا المكرسة.

لا ننكر أهمية القضايا الأدبية المطروحة قديمها وجديدها، لكن التركيز على قضايا مستهلكة ولو من زوايا جديدة على حساب الأدب المعاصر والراهن وقضايا علم النفس والاجتماع والفلسفة وغيرها من علوم إنسانية ينبئ بخلل ما. خلل يؤكده الانقطاع الكبير بين الساحة الثقافية والأدبية وما ينتج فيها والبحوث المطروحة في داخل أسوار الجامعات، التي باتت مؤسسات للتكرار، ولا علاقة لها ببيئتها، أو ماذا نفهم مثلا من باحث تونسي لا يفقه شيئا في الأدب التونسي، بينما يبحث حول شاعر أو أديب عربي أو عالمي نال حظه من البحث.

الجامعات كما أسلفنا ليست فقط أماكن للتوظيف، والبحث العلمي ليس وسيلة للترقي الاجتماعي فقط، هذه نظرة مغلوطة أودت بنا إلى آلاف البحوث السنوية حول قضايا مفرغة، تستهلك السنوات في تحبيرها، تُناقَش أمام لجان، توزع بعض الحلوى، ويمنح اللقب إلى الباحث، بالحصول على "دكتوراه"، فيضيف حرف الدال والنقطة إلى اسمه على حسابه في فيسبوك، أو على وثائقه الخاصة، أما البحث فإلى الغبار، وفي أحسن الحالات ينتقل الباحث "دال" للتدريس في الجامعة بعقود هشة، ويقدم لسنوات نفس البحث المكرر، وتستمر السلسلة على ما هي عليه.

لو سألنا ماذا استفاد مثلا الأدب التونسي من البحث حول الإيقاع في شعر درويش أو سميح القاسم، لن نجد إجابة، غير التبرير ربما أو الغضب في حالات مقابلة، بينما الظاهرة تستفحل يوما فآخر، خاصة في البحوث الأدبية، أكثر مما هو الحال في بقية العلوم الإنسانية.

لا نتهم الباحثين فقط ولا نحملهم بمفردهم العبء لواقع بحثي مأزوم، فالجامعات بدورها من أساتذة وإدارة والمخطط التنموي والتعليمي للدولة كلها تشترك في هذا الواقع الذي يذهب ضحيته بدرجة أولى طالب العلم أو الباحث.

البحث هوية

من ناحية أخرى تنعكس الصراعات الموجودة في الساحة الثقافية على ما يحدث داخل أسوار الجامعة، ونجد مثلا من يجمع بين الإبداع والجانب الأكاديمي من خلال الإشراف على رسائل ماجستير أو دكتوراه، فيكرس نفسه عينا وحكما من داخل مبنى الجامعة (المحصّن ضد الجدد) على الساحة، ويمنع طلبة من البحث حول هذا أو ذاك، ويوجههم إلى المكرر نفسه في شخصنة كاملة وتحكم في نهر المعرفة.

الشخصنة أنهكت وما زالت تنهك الساحة الثقافية والبحثية، ناهيك عن تصدر الجامعات لمواقع سلطوية وبقاء الأدب والإبداع والكتابات في العلوم الإنسانية في الهامش.

التحكم كبير من قبل السلطة الأكاديمية في البحوث الجامعية، توجهه إلى عدم التمرد ليحافظ حرس المعبد على ذواتهم كموجهين أساسيين للساحة الثقافية.

من ناحية أخرى الدولة لا تولي الاهتمام الحقيقي للبحوث العلمية إلا من حيث الأرقام، تكتفي بارتفاع أعداد الباحثين، وهم في الأصل هاربون من شبح البطالة، دون أن توفر لهم أساسيات البحث من مؤطرين ومكتبات ومخابر وآليات دعم للبحوث الميدانية وغيرها من الأدوات.

ربما تعجز الدولة فعليا عن توفير سبل البحث العلمي الجاد وذي الجدة والجدوى، وربما أجهزتها أكثر راحة بـ"التخلص" من بعض طالبي الشغل عبر رميهم في مجال البحث، الذي ينتهي إلى النهاية نفسها ألا وهي البطالة، مع إضافة حرف الدال إلى اسم المعطّل.

البحث العلمي ليس ترفا، وليس درجة اجتماعية، ولا هو وسيلة بعض المبدعين الفاشلين إبداعيا في التحكم في الساحة الثقافية من باب "البحث"، إنه أرقى من ذلك، إنه هوية وطنية تبدأ من محليتها إلى الكونية، إنه تحقيق للإنسانية وللخصوصية وربط لجسور المعرفة بين الذات والآخر، ولذا ننتظر استفاقة ما حتى لا يبقى البحث العلمي مجرد قشور لإخفاء الأمراض.

المغربي عبدالرفيع جواهري: هناك أزمة في طرق إيصال الشعر إلى الناس

الرباط – قال بيت الشعر بالمغرب، في كلمته بمناسبة اليوم العالمي للشعر، إن "أيام السنة كلها للشعر، لصوته الوجودي العميق أن يحلق كفراشة في كافة الشهور والفصول، وله أن يعلمنا في كل وقت وحين كيف نكون، وكيف نتمثل ذواتنا في علاقاتها بالآخر وبالعالم".

وورد ضمن الكلمة ذاتها أن بيت الشعر في المغرب إذ يحتفل، كما جرت العادة كل سنة، باليوم العالمي للشعر، فليس بهدف تقييد حركة الشعر أو الشعراء وسجنها في طقوس موسمية أو يومية عابرة، بل بهدف إثارة الانتباه، كل مرة، لحاجتنا إلى هذا الفن النبيل الذي عايش الإنسان ورافقه منذ اكتشاف هذا الأخير للشعر، إذ وجد فيه ما يتيحه له من قدرة على الحلم وترويض الخيال بهدف صوغ معنى جديد للحياة، يخفف به معاني الابتذال والتفاهة والتسطيح، التي ما فتئت مظاهرها تتزايد وتتقوى في حياتنا المعاصرة.

وعلى خطى بيت الشعر في الرباط، احتفت دار الشعر بمراكش باليوم العالمي للشعر ضمن تقليدها الثقافي الجديد "ملتقيات شعرية جهوية"، بأن تطلب من شاعر(ة) مغربي(ة) كتابة كلمة خاصة احتفاء باليوم العالمي للشعر.

وأكد الشاعر عبدالحق ميفراني، مدير دار الشعر بمراكش، أن الملتقى "يرسخ لثقافة القرب، في احتفاء متجدد ومستمر بالشعر المغربي وبالشعراء المغاربة، بالمزيد من الانفتاح على حساسيات وتجارب القصيدة المغربية الحديثة، وعلى مختلف أنماط الكتابة الشعرية، وبانفتاح بليغ على مختلف التجارب الشعرية وأجيالها المشكلة لشجرة الشعر المغربي. هي برمجة جديدة تراعي أسئلة التحولات التي مست راهن القصيدة، وأسئلتها، ولحظات معرفية للتفكير في وظيفة الشاعر اليوم وفي حضور الشعر ضمن المنظومة المجتمعية".

وأضاف أن "ملتقيات الشعر الجهوية، مبادرة ثقافية تسعى إلى الاحتفاء بالتنوع الثقافي المغربي، وتشجيع وتحفيز الأصوات الشعرية الجديدة، وتوسيع قاعدة الفعل الثقافي في اعتماده على القرب، ومد إشعاع الدار إلى مختلف الجهات الترابية التابعة لها".

وخصت الدار الشاعر المغربي عبدالرفيع جواهري أحد رواد القصيدة المغربية الحديثة، بشهادة عميقة تنتصر لحق الإنسان في الحياة والعيش المشترك.

وأكد عبدالرفيع جواهري أن "مع انبثاق الوردة الأولى للربيع في الواحد والعشرين من مارس، تحتفل البشرية كل سنة باليوم العالمي للشعر الذي هو في ذات الوقت، احتفال أيضا بالشعراء رجالا ونساء، والذين كرسوا إبداعهم للدفاع عن قيم الجمال والحب والسلم والحرية، وكل القيم النبيلة التي تجعل الحياة ممكنة".

ودعا الشعراءَ إلى نسج علائق بين القصيدة والموسيقى، مذكّرا بمقولة ابن خلدون عن العرب بأنهم "أنشدوا الشعر وغنّوه بالملكة"، وبمقولة الفارابي "الموسيقى المقرونة بالقول الشعري، هي الطبيعية على الإطلاق، وتعد من حيث التأثير والتخيل في المكانة الأولى".

وتساءل جواهري في الكلمة التي كتبها بطلب من دار الشعر بمراكش احتفاء باليوم العالمي للشعر "ألم يعد الشعر ديوان العرب؟ هل ولّى زمن الشعر؟"، ذاهبا إلى أن "الأزمة ليست في الشعر، بل في طرق وأشكال إيصاله إلى العموم".

وأضاف في هذا السياق "إني أرى أنّ الشعر المسجون في أقفاص الدواوين الورقية لم يعد يغري بالمتابعة، ولعل هذا ما جعل منظمة اليونيسكو تدعو إلى إحياء التقاليد الشفوية للشعر بإنشاده في الفضاء العمومي عن طريق الأمسيات"، داعيا إلى تحرير الشعر من "التقليدانية الورقية" وتقديمه فوق خشبة المسرح والساحات العمومية.

وتابع جواهري في كلمته "لقد كانت الشهور الأخيرة لنهاية القرن العشرين فرصة لمنظمة اليونسكو لاعتماد تاريخ 21 مارس، يوما عالميا للشعر، وكأنها بذلك تودّع قرنا شهد ويلات ومآسي الحرب. ولعل اليونيسكو استشعرت بسبب ذلك خطورة التفريط وعدم إعطاء العناية اللازمة لمنظومة الفنون والآداب، وما نشأ عن ذلك من فراغ روحي، فراهنت على الشعر ليكون في مفتتح القرن الحادي والعشرين منارة تبدد ما زرعته النزعات الظلامية من وحشية وخراب، وتبعث الأمل في الحق في الحياة والإبداع والعيش المشترك".

عبدالرفيع جواهري

الشعر المسجون في الدواوين الورقية لم يعد يغري بالمتابعة

وقال جواهري ردّا على من يشكك في أهمية الشعر ويرى أن لا حاجة له "هذه النزعة العدمية المتوحشة ليست وليدة اليوم، بل ترجع إلى أزمنة بعيدة. ولعل أفلاطون يعدّ المثال المعبّر عن هذا الاتجاه. ولم يكتف بالهجوم على الشعراء، بل تعدى ذلك ليسفّه فن الرسم وفن الموسيقى. ومن حسن حظ الشعر والشعراء أن أرسطو كان يرى عكس ما سار عليه أستاذه أفلاطون، فقد كان يرى أن للشعر وظائف اجتماعية وروحية، وأن الشعر أقرب إلى روح الواقع وأقرب إلى روح الحق".

وأكد جواهري أن تخصيص يوم عالمي للشعر، من شأنه أن يدعم التنوع اللغوي، ويكرم الشعراء، ويحيي التقليد الشفهي للأمسيات الشعرية.

الشعر يحتاج إلى الترويج (لوحة للفنان ضياء العزاوي)